الأثر الحضاري لجامع الزيتونة على النخبة الجزائرية

د. خير الدين شترة

جامعة أدرار

الملخص:

إن هجرة العالم أو طالب العلم لا تعني هجرة فرد أو أسرة، إنما تعني هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة، وقد كانت ظروف اجتماعية وسياسية وعلمية ودينية وأمنية...الخ دفعت كثيرًا من العلماء وطلبة العلم الجزائريين إلى الهجرة وفي مقدمة هذه الظروف الاجتماعية عدم وجود مدن علمية زاهرة بالجزائر.

لقد كان لجامع الزيتونة التفاتة وفيّة للتاريخ وللتراث العربيين في أقطار ثلاثة تعاني من الدخيل الغازي والعدو المشترك، كما كان الجامع همزة وصل للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق والدعوة الإصلاحية المتجاوبة في أرجائه، إن جامع الزيتونة بتونس الذي هو أحد أقدم المعاهد التعليمية العربية حمل لواء الثقافة القومية ما لا يقل عن اثني عشرة قرنا ونصف وحافظ على المقوّمات الحضارية لمنطقة المغرب العربي، وقد استطاع أن ينشىء جسرا دائما يربط بين التونسيين والجزائريين، هؤلاء الأخيرين الذين كانوا ينظرون إليه على أنه الحارس الأمين للتراث القومي، ويشعرون بعمق الصلة التي تربطهم به.

لقد أُشرب ابن باديس حبّ الزيتونة والتعاطف مع قضاياها والتحلي بروح العرفان لها وكذا الأمر بالنسبة لتلاميذه، حيث درجوا مثله على الوفاء لها ومن شواهد ذلك ما اعتاد أن يظهره هؤلاء من الولاء والتقدير للزيتونة ويُصرحوا به في المواقف المختلفة وينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن ذكر تلك الذوات من الزيتونيين لا نرمي من خلاله إلى تأييد نظام تعليمي ظهرت مساوئه جليّة منذ

المنارة للاستشارات

زمن بعيد حيث كان الزيتونيون هم أنفسهم في طليعة المكافحين من أجل إصلاحه وإخراجه –بل قمنا بذلك على سبيل الأمانة العلمية– غير أن التعليم الزيتوني لم يكن سلبياً بالجملة وهو الأمر الذي حاولت بعض الدراسات التي نالت حظها من الاهتمام والتنويه؛ التركيز عليها، فأدخلتنا في متاهة الحديث عن جوانبه السلبية فقط من مناهج وطرق تدريس وظروف تعليم وحركات إصلاح ...فقد أصبح من الضروري أن نهتم بذكر جوانبه الإيجابية أيضاً، لقد إضطلع جامع الزيتونة بدور كبير في إشعاع الدين الإسلامي وترسيخ الثقافة العربية في عصر إتصف بالتحديات والأخطار، وتكوين نخبة إسلامية وعربية ويجب علينا وعلى الأجيال المقبلة الاعتزاز بها اعتزازا لا ينسينا العدد المرتفع من ضحايا الأسلوب التربوي الزيتوني العتيق في بعض جوانبه.

Résumé :

L'université islamique Az-Zaytouna a porté un regard fidèle sur l'histoire et le patrimoine arabes dans trois secteurs souffrant de l'intrus invasif et de l'ennemi commun. Elle était le lien entre la nouvelle révolution littéraire en Orient et l'incitation à la réforme réceptive à travers ses horizons. La grande mosquée Az-Zaytouna en Tunisie, qui est l'un des plus anciens instituts instructifs arabes, s'est chargée de la culture nationale durant plus de douze siècles et demi et a préservé les résistances de la civilisation maghrébine. Elle a pu créer un pont permanent reliant les tunisiens aux algériens. Ces derniers le considéraient comme le gardien du patrimoine national et ressentaient un attachement profond qui les unissait.

مقدمة :

المنارة للاستشارات

لقد تلقى الطلبة الجزائريون بمراكز التعليم التونسية أنواعاً شتى من العلوم والفنون وهي التي نستطيع أن نحكم من خلالها على لون ثقافتهم ومرتكزات إيديولوجيتهم وتأثيرها فيما بعد في إنتاجهم واتجاهاتهم، فحالة طلب العلم، وحركة المتعلمين بين الجزائر وتونس وتناغم البرامج والكتب والعلوم وتناسقها بين دور العلم بين القطرين أدت بالضرورة إلى نوع من الوحدة العلمية والفكرية والثقافية وهو ما أثّر بشكل كبير في تقارب الأفكار والأيدلوجيات بين علماء وطلبة المنطقة، وهو المعطى الذي زاد من نماء العلاقات وتميّز الصلات بين القطرين.

عمومًا يمكن القول أن الطابع العام لثقافتهم كان هو الطابع العربي القديم حيث كانت مراكز تعليمه لا تعدوا أن تكون على صفة الكتاتيب المنتشرة في المدن والقرى لتحفيظ القرآن ووسائل فهمه من نحو وصرف وبلاغة وتاريخ ومنطق وعروض[1]، يضاف إليها قليل من الرياضيات، وقد جرت العادة أو اقتضت الضرورة في البلاد التي بها معاهد للدراسات القرآنية والثقافة العربية، أن ينتقل الطالب من هذه الكتاتيب إلى الدراسة في المساجد التي تكون في الغالب أوسع مدى وأرقى أسلوبًا وأغنى مادةً، ثم يختم الطالب دراسته بالحصول على شهادة أو إجازة.

ولما كانت الجزائر خالية من مراكز هذا التعليم العالي، فقد اضطر أبناؤها إلى الاغتراب طلبًا للثقافة العربية فكان بعضهم يتجه إلى الأزهر أو القرويين ولكن أغلبهم–ولاسيما منذ مطلع القرن العشرين– كان يقصد جامع الزيتونة بتونس، لقرب هذا المعهد وشهرته بينهم والمساعدات المادية التي لا يجدونها في غير تونس إذ ذاك، فالمؤسسات التعليمية بتونس كانت أهم

[1]– للتوسع يراجع: سعد الله (أبو القاسم)، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، بيروت: دار الغرب الإسلامي 2005م، ص 89.

المنارة للاستشارات

العوامل التي أثّرت في الحياة العلمية بالجزائر وشجعت الرحلات الطلابية إليها[1] ومن ثم خلقت جيلاً متعلمًا يؤمن بضرورة التواصل الحضاري والسياسي بين شعبي المنطقة.

01/ بواعث الهجرة:

إن هجرة العالم لا تعني هجرة فرد أو أسرة، إنما تعني هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة، وقد كانت ظروف اجتماعية وسياسية وعلمية ودينية دفعت كثيرًا من العلماء وطلبة العلم الجزائريين إلى الهجرة وفي مقدمة هذه الظروف الاجتماعية؛ عدم وجود مدن علمية زاهرة فمدينة الجزائر العاصمة مثلاً كانت معدومة النشاط العلمي حينذاك مقارنة مع ما كانت تتمتع به بعض العواصم المشرقية، حيث وصفها الرحالة العبدري بقوله: «وقد دخلتُها سائلا عن عالم يكشف الكربة، وأديب يؤنس الغربة فكأنني أسأل عن الأبلق العقوق أو أحاول تحصيل بيض النوق»[2]، و في الجملة هناك عدة عوامل كانت سببًا في هجرة العلماء وطلبة العلم الجزائريين إلى تونس لعل أهمها:

– **العامل الروحي:** وجود شيوخ طرق صوفية مشهورين في تونس بل أن الزوايا الأم لأشهر الطرق الصوفية في الجزائر هي موجودة بتونس.

– **العامل العلمي:** وجود مؤسسات تعليمية عريقة كالزيتونة والصادقية وجمعية الخلدونية.

[1]– بنت محمد البسام (لطيفة)، الحياة العلمية في افريقية في عصر بني زيري، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 2001م، ص 99.

[2]– يخلف(رمضان)، عبد الرحمان الثعالبي ومنهجه ، ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة، 1992م، ص13.

المنارة للاستشارات

- العامل الأمني:

وجود حياة هادئة ورخاء مع وجود سلطة سياسية تحترم العلم والعلماء وتعتني بهم[1] نقيض ما هو جاري به العرف الجزائري خصوصًا في العهد الاستعماري، فالفرنسيون لم يعطوا أي مكانة للعلماء وطلبة العلم رغم تعهدهم في وثيقة الاستسلام (05 جويلية 1830م) واستبْقوا فقط بعض المناصب الرمزية (الشكلية) كمنصب المفتي في المدن الرئيسية بصفة رجل دين يستعان به، وفي حالة معارضته لنظام الاستعمار يُنفى وهو ما حصل لكثير من علماء الجزائر.

02/مكانة تونس عند الجزائريين :

يقرّ الشيخ محمد خير الدين* بدور تونس ومؤسساتها التعليمية في تكوينه بقوله: «عاشت تونس خلال مقامي بها (ما بين 1918- 1925م) فترة خصبة من حياتها عامرة باليقظة والنهضة... رأيت فيها ما لم أشاهده من قبل في حياتي الأولى بالجزائر، فأثّرفيّ ذلك وهيّأني للعمل على نهضة الجزائر في مجالين متوازيين هما: الإصلاح الديني- الإصلاح الوطني، وهكذا استفدت من إقامتي في تونس زيادة على العلم بزاد آخر سياسي واجتماعي ثري...»[2]، ولئن أتيح لإفريقيا أن تساهم على التعاقب في مختلف الحضارات التي ازدهرت على ضفاف البحر المتوسط فقد كان ذلك إلى مدى بعيد عبر تونس وبواسطتها

---

[1]- عميراوي (أحميدة)، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: دار الهدى، 2005م. ص.ص(55 – 56).- راجع أيضا: عميراوي (أحميدة)، علاقات بايلك الشرق بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، الجزائر: دار البعث، 2002م.

[2]- خير الدين (محمد)، مذكرات، ج1، الجزائر: مؤسسته الضحى، 2000م. ص 80.

* خير الدين(محمد).(1902-1994)م ولد ببلدية فرفار (الزيبان) ودرس بها وفي سنة 1916م، انتقل إلى قسنطينة، وبعد سنتين انتقل إلى الزيتونة وحصل على شهادة التطويع سنة 1925م. وكان له دور بارز في الحركة الإصلاحية، التحق بجبهة التحرير عام 1956م، وغداة الاستقلال أنتخب نائبا بالمجلس الشعبي الوطني إلى غاية عام 1964م بعدها قرّر اعتزال السياسة، ترأس جمعية العلماء عام 1992م.

المنارة للاستشارات

ولـيس مـن بـاب الصـدفة أن تكـون تـونس هـي البلـد الـذي كـان أعمـق تـأثرًا بالحضارة البونيقية والقرطاجنية والتي انطبعت أكثر من غيرها بالطابع الروماني والمسيحي ثم كان فيما بعد أشمل أقطار المغرب تعربًا[1]، فتونس عبارة عن مدخل ومعبر للفاتحين والمكتسحين، وهي القطر الأكثر انفتاحًا لحضارات البحر المتوسط وللحضارات الشرقية لكنها إلى ذلك، القطر الذي عاشت فيه المدن من أقدم عصور التاريخ وكانت أوفر ازدهارًا، وهكذا فإن الجزائر مدينةٌ إلى مدىً بعيد لتونس بشخصيتها وثرائها التاريخي والطبيعي.

وتعدُ تونس من بلدان إفريقيا الشمالية، البلد الذي أثّر فيه الشرق أشد التأثير وذلك لموقعها الجغرافي، الذي جعلها منذ تأسيس القيروان سنة675م (القاعدة الأولى للإسلام بالمنطقة)، وعند فجْر حركة الوحدة العربية أمّها زوّار من الشرق كشفوا لها عن مرامي تلك الحركة، كما تعتبر من يوم تاريخ بناء جامع الزيتونة حامية الدين والتقاليد والسنة بإفريقيا الشمالية بأسرها[2]، كما أنه من جهة أخرى توجد بها تسعة عشرة (19)طريقة وخمسمائة500 زاوية ينتمي إليها ما يقارب الثلاثين ألف (300000) من الإخوان (!!) زد على ذلك اربعين ألف(40000) من سلالة الأولياء وأتباعهم الذين يخدمون 178 زاوية طرقية صوفية، وأخيرًا (622) من قبور الصالحين المقدسة[3]، وقد أثّر مجموع ذلك التأثير البليغ خاصة على العناصر المحافظة من ساكني الجزائر، ومن الصعب تصوّر تفاعل يضم دولا ذات إيديولوجيات سياسية وفكرية متناقضة، لأن التوحيد السياسي والفكري يتطلب قرارات فكرية وممارسات سياسية من

---

[1]– ديبو (ج)، تونس، تر: الصادق مازيغ، تونس: الدار التونسية للنشر، 1969م ، ص 16.

[2]– جوليان (ش،أ)، أفريقيا الشمالية تسير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م.، ص 87.

3– نفسه، ص 88.

المنارة للاستشارات

طرف النخب القائدة، ومن هذا المنطلق فإن فكرة التوحيد كانت نابعة من هذه النخب التي أثّرت وتأثّرت بالمحيط السياسي والفكري للبيئة التي نشأت فيها.

فقد كتب ابن باديس يعترف بجميل تونس في تكوينه مقالا بعنوان : "تونس العزيزة"[1] «حقًا ! إن لتونس هوى روحيًا بقلبي لا يُصارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر ونشاط في الفكر وغبطة في القلب، لا أجد مثلها إلا في ربوعهما... ومن نعم الله عليّ في العهد القريب أن يسّر لي التردد بين الخضراء والبهجة وقد كانت آخرهما في تونس ذات مظهر ممتاز ومغزى سام »، وفي رسالة تليت في الاحتفال الذي أقيم بتونس بمرور سبع سنوات(07)على وفاة الإمام الشيخ ابن باديس، عبّر الشيخ البشير الإبراهيمي فيها عن مدى حبّه لتونس ولجامعها المعمور قائلا: «...أحيّي على بعد الدار تونس العزيزة عليّ، الحبيبة إليّ، فكم لي بها من علاقات يبلى الزمان وهي جديدة وأعلاق تنحط القمم وهي أبدًا عالية، وذخائر من صداقة وأصدقاء هي مع أعمالي كل رأسمالي... وواشوقاه إلى تونس...».[2]

ويذكُرها الشيخ محمد الصالح بن عتيق* بقوله: «..[لقد] وجدت نفسي في وسط يختلف كثيرا عن الوسط الذي كنت فيه –الجزائر– رقيًا وحضارةً، لقد عرفت هنا بتونس المنظمات السياسية والأحزاب الوطنية والنوادي الأدبية، وسمعت من السياسيين والوطنيين والأدباء خطبًا ومحاضرات وقرأت الكثير من الصحف والمجلات، فكان ذلك عاملاً أساسيًا في اتجاهي... وإني أعترف بما لجامع الزيتونة من أثر في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية

---

[1]– الشهاب، ج5، مج13، 1913م.

[2]– الإبراهيمي (محمد البشير)، " رسالة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة"، الموافقات، ع04. الجزائر، جوان 1995م، ص 76.

* بن عتيق (محمد صالح)،" 1903 – 1993 من مواليد 1903/05/04م بالميلة، التحق بالجامع الأخضر، ثم هاجر إلى تونس والتحق بالزيتونة وحصل على شهادة التطويع ثم عاد إلى الجزائر فعمل على نشر الدعوة الإصلاحية ومحاربة الشعوذة والطرقية ، أشرف على عدة مدارس، وتعرض لعديد الاعتقالات من طرف السلط الاستعمارية إلى غاية الاستقلال، وبعده عين مفتشاً جهوياً في الشؤون الدينية، ثم أستاذاً في ثانوية حسيبة بن بوعلي بالقبة إلى غاية إحالته على التقاعد سنة 1972م، له عدة مؤلفات أهمها مذكراته (أحداث ومواقف).

المنارة للاستشارات

في الجزائر، فدعاة الإصلاح في هذا الوطن الذي نادى به الشيخ بن باديس.. إنما من غرس الجامع الأعظم بتونس..».[1]

[1]- بن عتيق (محمد صالح)، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية، الجزائر: مطبعة دحلب، 1990م، ص 70.

المنارة للاستشارات

03/ مكانة الجامع الأعظم في نفوس الجزائريين :

لقد كان جامع الزيتونة في تونس صنو الأزهر في مصر، وجامع النجف في العراق فهو دار للعلم ومأوى لطلابه في ذلك العهد الزاهر، يشتهر بأكثر من شخصية علمية وأدبية تشد الرحال من الأقاصي، فقد كان للجامع التفاتة وفيّة للتاريخ وللتراث العربيين في أقطار ثلاثة تعاني من الدخيل الغازي والعدو المشترك، كما كان الجامع همزة وصل للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق والدعوة الإصلاحية المتجاوبة في أرجائه.[1]

إن جامع الزيتونة بتونس الذي هو أحد أقدم المعاهد التعليمية العربية حمل لواء الثقافة القومية ما يقارب الإثني عشرة قرنا ونصف وحافظ على المقومات الحضارية لمنطقة المغرب العربي، وقد استطاع أن ينشىء جسرا دائما يربط بين التونسيين والجزائريين، هؤلاء الأخيرين الذين كانوا ينظرون إليه على أنه الحارس الأمين للتراث القومي، ويشعرون بعمق الصلة التي تربطهم به فجامع الزيتونة أسهم مساهمة فعالة في الحركتين الوطنيتين التونسية والجزائرية بأبنائه وقيّمه وروحه، فكانت كلا الحركتين زيتونيتين كما أسهم العنصر الزيتوني في نضال المصلحين خصوصًا بعد حركة الإصلاح والتجديد التي أجريت في منهاجه وإدارته، والتي أخذت تؤتي أكلها بظهور جيل جديد من أبنائها أكثر تفتحًا وأشد تلاؤمًا مع متطلبات العصر كان الحامل لمشعل الكفاح المسلح ضد الاستعمار الفرنسي.[2]

لقد أُشرب ابن باديس وتلاميذه من بعده حبّ الزيتونة والتعاطف مع قضاياها والتحلي بروح العرفان لها حيث درجوا مثله على الوفاء لها ومن شواهد ذلك ما اعتاد أن يظهره هؤلاء من الولاء والتقدير للزيتونة ويُصرحوا به

---

[1]– بن خيرة (نجيب)، شاهد القرن الأديب موسى الأحمدي نويوات، الجزائر: دار هومة، 2003

[2]– الطاهر(عبد الله)،الحركة الوطنية التونسية، تونس: دار المعارف للطباعة، 1990م.،ص ص (226–227).

المنارة للاستشارات

في المواقف المختلفة[1] فهذا الشيخ عبد اللطيف بن علي القنطري يجسّد صورة من وفاء جيل، مظهرا شتى عواطف الولاء والتقدير لما قدمته الزيتونة من خدمات قائلا:«إن الكلية الزيتونة لها الفضل الكبير على أبناء الشمال الإفريقي عمومًا أيا كانوا وذلك لأننا نرى في كل سنة ما تنتجه من خيار الشبيبة المتنوّرة أفكارهم »[2]، كما يعترف الطالب الجزائري بالزيتونة الحبيب بناسي* فيقول: « وللزيتونة والحق يقال فضل على الجزائر في الميدان الثقافي إذ لا ينسى ناس أن الجزائر محرومة من التعليم العربي كلية بل اللغة العربية غير معترف بها.. والتعليم جريمة يعاقب عليها بأبشع العقوبات ».[3]

إن التعليم الزيتوني بالجامع الأعظم وفروعه كان عامل وحدة وتقارب بين الجاليات الإسلامية المقيمة بتونس والشعب التونسي، ففي رحاب الجامع الأعظم جلس الطالب الزيتوني والجزائري والليبي والمغربي وغير ذلك من الوافدين من أقطار إسلامية أخرى.

وفي الوقت الذي نجد فيه الجاليات الإسلامية قد اندمجت مع الشعب التونسي في اختيار مسار تعليمي واحد في شكل هرمي يبدأ بالمدرسة القرآنية أو الكتّاب وينتهي بالزيتونة التي تمثل مرحلة متقدمة في السلم التعليمي الديني، نجد أن الجاليات الأخرى مثل الجالية الإيطالية واليهودية قد خلقت كيانا مستقلا لنفسها، من خلال تأسيس معاهد خاصة ففي سنتي 1831م و1840م تم

---

[1]– الجابري (محمد الصالح)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب، 1983م، ص 52.

[2]– الشهاب، 27 أكتوبر 1927م.

* الحبيب بناسي"1931 م":من مواليد المشرية (النعامة)، حفظ القرآن الكريم مبكراً وفي سنة 1947م التحق بجامع القرويين، وفي سنة 1951م، التحق بجامع الزيتونة لكن الأحوال السياسية تدهورت على إثر اعتقال الحبيب بورقيبة، ففقل راجعاً إلى مدينة بلعباس، شارك في الثورة الجزائرية، بعد الاستقلال انخرط في سلك التعليم ثم ما لبث أن التحق بجامعة الجزائر حيث تخرج منها شهادة الليسانس في الفلسفة سنة 1971م، تقاعد سنة 1991م مارس الكتابة في عدة صحف وطنية.

[3]– الزيتونية، 27 أكتوبر 1954م.

المنارة للاستشارات

تأسيس معهد لليهود ومعهد للإيطاليين بمدينة تونس[1]، وفي سنة 1885م أفتتحت مدرسة ثانوية إيطالية.

فجامع الزيتونة يُعد منارة أضاءت بنورها سماء بلاد المغرب العربي، ويشكل في أهميته التربوية المرتبة الثانية بعد جامع الأزهر بمصر[2]، وقد ارتحل إليه المسلمون من الأقطار المغاربية والأفريقية لينهلوا من منابع فيضه شتى العلوم وأصول الدين[3]، وكانت صورة الجامع الأعظم في نفوسهم رائعة وعظيمة لإدراكهم أنه: ما ضاق صدر مهموم ودخله إلا وإنفرج وانفتحت له بلطيف عنايته أبواب الفرج»[4] وعلاقة الجزائريين بجامع الزيتونة تعود إلى فترات تاريخية موغلة في القدم، حيث احتضن الجامع الأعظم العديد من الطلبة الجزائريين الذين شغفوا بطلب العلم، ولم يقتصر وجود الطلبة بالجامع الأعظم فقط ولكن بعض الطلبة كانوا منتسبين لفروعه في بعض المدن مثل: قابس وصفاقس والمنستير، وفي هذا السياق يقول محمد الطاهر فضلاء:«...الذي أعرفه ويعرفه الناس جميعًا في الجزائر هو تأثير جامع الزيتونة في تلك النواحي بالخصوص، وهو يتمثل في المصلحين عموما وفي مثقفي اللغة العربية والمتخرجين من ذلك المعهد الإسلامي العظيم الذي جنى الاستقلال والحزب الدستوري فعطلاه عن تأدية رسالته المقدسة».[5]

ولا يعزب عن أحد أن دور جامع الزيتونة في بثّ العقيدة الإسلامية وعلوم الشريعة المحمدية والآداب العربية، كان دورا جليلا وأن للزيتونة إسهاما في إشعاع الحضارة الإسلامية تجاوز حدود البلاد التونسية، وقد يدرك المتأمل

---

[1] The Tunisian Ulama(1873-1915), social structure and Response To Ideological, (P.HD), - Gran, (A.H), Dissert, U.C.L.A., 1971, P53

[2] – الزيدي (علي)، تاريخ النظام التربوي للشعبة العصرية الزيتونية، تونس: بلا نشر، 1986م.، ص09.

[3] –المعموري(الطاهر)،جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي،تونس: الدار العربية للكتاب، 1980م ص03.

[4] – السراج(محمد)، الحلل السندسية في الأخبارالتونسية، مخطوط 01 ، تونس: المكتبة الوطنية ، ب.ت، ص567.

[5] – فضلاء(محمد الطاهر) ، التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، الجزائر: دار البعث 1982م، ص 329.

المنارة للاستشارات

في قائمة النخبة الجزائرية المثقفة في غضون القرن العشرين جسامة الإسهام الزيتوني في تطور الجزائر كما يلاحظ قدرة التعليم الزيتوني رغم المشاكل التي كان يتخبط فيها على تكوين نخبة متضلعة لا في العلوم الدينية فحسب بل وفي العلوم الأدبية واللغوية، وقد كانت النخبة الزيتونية تواكب العصر، ويشارك أفرادها في كل النضالات الاجتماعية والسياسية ويمكن أن نذكر في هذا المجال أعداد كبيرة منهم.

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى أن ذكر تلك الذوات من الزيتونيين لا نرمي من خلاله إلى تأييد نظام تعليمي ظهرت مساوئه جلية منذ زمن بعيد وكان الزيتونيون أنفسهم في طليعة المكافحين من أجل إصلاحه وإخراجه –بل قمنا بذلك على سبيل الأمانة العلمية– غير أن التعليم الزيتوني لم يكن سلبياً بالجملة وهو الأمر الذي حاولت بعض الدراسات التي نالت حظها من الاهتمام والتنويه التركيز عليه، فأدخلتنا في متاهة الحديث عن جوانبه السلبية فقط من مناهج وطرق تدريس وظروف تعليم وحركات إصلاح ...فقد أصبح من الضروري أن نهتم بذكر جوانبه الإيجابية أيضاً.

فقد اضطلع جامع الزيتونة بدور كبير في إشعاع الدين الإسلامي وترسيخ الثقافة العربية في عصر اتصف بالتحديات والأخطار، وتكوين نخبة إسلامية وعربية ويجب علينا وعلى الأجيال المقبلة الاعتزاز بها اعتزازا لا ينسينا العدد المرتفع من ضحايا الأسلوب التربوي الزيتوني، جاء في البصائر مقال بعنوان(حول الجامع الأعظم)[1]:« إن الذي يدرك قيمة ذلك المعهد وفضله على هذه الأمة الإسلامية العربية المنتشرة على أرض هذا الشمال الأفريقي في حياطة دينها، وحفظ لغتها وصيانة أدبها والصورة الحقيقية لروحها وشخصيتها؛

[1] – البصائر: ع 67، 14 ماي 1937م ، يراجع أيضا :" إضراب سيتم واحتجاجات تتوالى وحملة تتجه إلى هدف جديد" الزهراء، تونس: ماي 1937م.

المنارة للاستشارات

يدرك ولا شك عندما يأخذ في علاج مشاكله وبيان أوجه إصلاحه أي أمر يقدم عليه ويحاول إعطاء نظريته فيه، فإن جامع الزيتونة أدام الله عمرانه قد بقي طيلة هذه القرون العديدة التي مرّت على إنشائه كعبة الشمال الأفريقي ومنارة الدين فيه ومبعث أقطاب الشريعة وعلومها وحفظة اللغة العربية وآدابها ممن يتكوّن منهم الجهاز الصالح للدولة الإسلامية في ناحيتي الدنيا والدين فقدسية هذا المعهد الدينية وقيمته الدنيوية والتاريخية هي التي يقوم عليها هذا الاعتبار والاحترام الذي يملأ قلوب كافة مسلمي هذه الأقطار»، فللزيتونة وعلمائها وشيوخها وأئمتها أفضال كبيرة وكثيرة جدا على الجزائر والشعب الجزائري خاصة في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وذلك في ميدان الفكر والثقافة والتربية والتعليم، لأن الاستعمار الفرنسي عندما احتل البلاد عام 1930م ركّز كل جهوده على تجهيل الشعب الجزائري وتفقيره وحرمانه من نور العلم والمعرفة، وبما أن الشعب الجزائري متحضّر أصلا ومتعلّم ويعرف قيمة العلم وأهمية المعرفة، فإنه لم يستسلم للإدارة الاستعمارية وسياستها التجهيلية وتشبّث بلغته وبدينه وثقافته العربية الإسلامية ووجد الحل الناجع في الجامعة الزيتونية العامرة وعلمائها وأئمتها وأعلامها الكبار، فتوجّه إلى هناك الطلبة الجزائريون جماعات وزرافات ووحدانا للتعلّم والتزوّد بالمعارف والآداب، ووجدوا حسن الاستقبال والعطف واستقبلهم علماء الزيتونة بكل ترحاب وعلموهم وكوّنوهم وأحسنوا تربيتهم وتكوينهم العلمي والأدبي... وتخرّج على أيديهم علماء أجلاّء لعبوا دورًا رائدًا في الحفاظ على الوجه العربي الإسلامي للجزائر»[1].

[1] - الزيتونية، مج 6، ج2+3، تونس: 1945/8/7، ص 435.

المنارة للاستشارات

وفي السياق ذاته يقول الطالب الزيتوني يحي بوعزيز*:«إن ما قدّمته الجامعة الزيتونية وعلماؤها من أفضال للجزائر لا يمكن حصرها أو تقديرها بثمن، والجزائر مدينة لها ولا تستطيع أن ترد ولو واحدا في المليار من الجميل لأن الزيتونة هي التي كوّنت الأجيال المثقفة الجزائرية التي حافظت على عروبتها وإسلامها، ومنهم أنا الذي درست في الزيتونة سبع سنوات كاملة (1949 –1956)م، ابتداء من صاحب الطابع إلى الحفصي فاليوسفي فحمودة باشا فالزيتونة، وحصلت على الشهادة الأهلية بامتياز وجائزة على مستوى كل المملكة التونسية عام 1953م...».[1]

وإذا كان للزيتونة من فضل على الجزائر، فإن فضلها الكبير يكمُن في هذه الصدفة النادرة التي أتاحت لابن باديس التتلمذ على بعض أعلامها، أما أفضال ابن باديس على العروبة والإسلام وعلى الجزائر قاطبة فتكمُن في حلقة الوصل التي أحكم رباطها المقدّس بين شعبين طالما حلُم الاستعمار ببتر الأمشاج التي تربطهما، فنُضج تجربة ابن باديس قد حدث في تونس ولا داعي هنا لذكر عوامل هذا النضج فالتجربة الإنسانية لشاب موهوب مثل عبد الحميد بن باديس ذات أبعاد عديدة، فهناك تجربته مع شيوخه الذين تأثر بهم جميعا، ويبدو أنه تأثر بالشيخ محمد النخلي بدرجة كبيرة وكان النخلي من مدرسة الشيخ عبده ومن المعجبين بمجلة المنار، ولهذا لا نستغرب أن يبادر بن باديس

[1] –بوعزيز (يحي)،" أفضال الزيتونة على المسيرة الثقافية والعلمية بالجزائر"، مجلة الهداية، ع 152، تونس: 2002م.

* *بوعزيز (يحي)* (1929–2007م).من مواليد يوم 27 ماي 1929م، في قرية الجعافرة ببرج بوعريريج. تلقى تعليمه الأول على يد والده، ثم زاول دراسته في مدرسة خاصة منذ 1947م، وفي أواخر عام 1949م التحق بمعهد الزيتونة في تونس وتحصل منه على شهادة التحصيل عام 1956م. وفي خريف 1957م التحق بقسم التاريخ في جامعة القاهرة حيث تحصل على الليسانس عام 1962م وعلى الدكتوراه من جامعة الجزائر عام 1976م وبالموازاة مع ذلك كان يشتغل في سلك التعليم وعُيّن عضواً في اللجنة الوطنية الوزارية للتأليف المدرسي في صيف عام 1963م، وشغل أستاذاً محاضراً في جامعة وهران، له دراسات تاريخية عديدة.

المنارة للاستشارات

على إثر انتهائه من الدراسة في تونس توسّم خُطى هؤلاء الزعماء (رغم حداثة سنه) فبدأ بمشروع برأسين من أجل تحرير الجزائر.

* الأول نشر التعليم العربي في شكل تسمح به ظروف الحرب الاستثنائية.

* والثاني إنشاء مؤسسة إعلامية للتوعية والتثقيف.[1]

وإثر عودته إلى الجزائر من رحلته الثانية إلى تونس التي شارك فيها في الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة المرحوم البشير صفر نشر ابن باديس النص التالي الذي عبّر فيه عن صدق مشاعره وتقديره لتونس وقادة النهضة فيها: «... إن الروابط عديدة بين تونس والجزائر بل بين المغرب العربي بصفة عامة، كالروابط العلمية والروابط السياسية التي ذاقت بها هذه الأقطار حلاوة الاستقلال تحت ظل الإسلام، والتاريخ يشهد بذلك وأنا شخصيا أصرّح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذا الروح التي انتهت في اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر»[2]

وهكذا تبرز هنا إحدى الصور الأدبية في أسلوب بن باديس الذي يغلب عليه عمومًا الطابع التقريري ذو السمة العلمية فعكس حبه لتونس التي عرفها طالبا كما عكس الارتباط الروحي لدلالات المكان الحضارية.

وعن ولع الجزائريين بالزيتونة ووفاء لتونس وفضلها كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس في افتتاحية جريدة البصائر في عددها(123)من السلسلة الأولى مقالاً بعنوان "الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح" جسّد فيه ولع هذا الشيخ ذي التكوين الطرقي قال فيه: «...كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة – رحمه الله– رجلا قويا ذكيا واسع الحيلة بعيد النظر، قدّم أبناءه لجامع

[1] – سعد الله (أبو القاسم)، خارج السرب، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2005م ، ص 46.

[2] – ابن باديس(عبد الحميد)، " في تونس العزيزة" ، الشهاب، ج5/ مج 13، تونس 1937/07م.

المنارة للاستشارات

الزيتونة المعمور وحبَس أملاكه كلّها على العلم واشترط في حبسه أن تعمُر زواياه بأهل العلم من أئمة ومدرسين ومتعلمين واشترط في أبنائه أن لاحظ لأمرهم من الحبس إلا إذا حصل على شهادة العالمية (التطويع) من جامع الزيتونة وجعل الإشراف على الحبس لنظارة (جامع الزيتونة)، ومن عمله هذا على أن أملاكه هي أموال المسلمين فلتعد بالنفع على المسلمين وانتهى أمر الحبس إلى الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي بمقتضى شرط المحبس بعد وفاة أخيه الأكبر...».[1]

ورغم أن الشيخ الإبراهيمي كان درس بالحجاز والمشرق العربي فإن إيمانه بالدور الذي لعبته الزيتونة في الحياة الفكرية بالجزائر والدعم المعنوي الذي رفدت به حركة جمعية العلماء، هو الذي حمله على أن يقرّ فيما بعد بالعلاقة العضوية بين الزيتونة وبين معهد ابن باديس ويُعمّق أبعادها، إذ كان لا ينفك يردد مباهيًا في بعض المناسبات قائلا: «...فأنا لم أتخرج من الزيتونة ولم أقرأ في الجامع حرفا ولكني تخرّجت بالمدينة المنوّرة على أضواء كواكب الزيتونة في وقته،... الشيخ محمد عبد العزيز الوزير التونسي رحمه الله، فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المقات، آمنة الانبتات...»[2]، كما كتب في عدد آخر مقالا بعنوان "حيّا الله تونس" [3] :«تونس قبلة الجزائر العلمية ومأزرها الذي تأزر إليه في النوائب ومنارتها التي تشرف منها على الشرق وأنواره، فلا عجب إذا حرصت جمعية العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وبينها وعلى توضيح ما يخفى من أحوال الجار على جاره، وإزالة ما يلبس به سيء القصد وسيء الفهم على صحيح العقد حسن القصد..».

---

[1] – فضلاء (محمد الحسن)، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الجزائر:دار هومة، 2000م. ص.ص(140–141).

[2] – البصائر، ع0 2، الجزائر 1936/05/22.

[3] – البصائر، ع60، الجزائر: 1948/12/20م.

المنارة للاستشارات

ويذكر محمد السعيد الزاهري« أن جامع الزيتونة كان أشبه بخلية النحل في ذلك العهد الزاهر ويشتهر بأكثر من شخصية علمية وأدبية تشد الرحال إليها من الأقاصي وكانت أمهات الكتب العربية هي المورد الذي تلتف حوله الحلقات فكان الجامع بذلك إلتفاتة وفيّة للتاريخ وللتراث العربيين في أقطار ثلاثة تعاني من غزو دخيل وعدو مشترك كما كان الجامع همزة وصل للنهضة الأدبية الحديثة في المشرق والدعوة الإصلاحية المتجاوبة في أرجائه..»، ثم يعبّر عن امتنانه وتعلّقه بهذه المؤسسة العريقة التي شكّلت الأداة الضرورية لنهضة الجزائر قائلا: « أنا مدين لكلية جامع الزيتونة بتونس فقد تخرجت فيها وأحرزت على شهادتها (التطويع)، وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني هذه أيضا مدينة لجامع الزيتونة فكثير من رجال هذه الحركة قد تخرجوا في الزيتونة وأحرزوا على شهاداتها العلمية وحسبك أن العلامة الأستاذ ابن باديس نفسه تخرّج من الزيتونة وأحرز على إجازتها ومنزلة جامع الزيتونة هذا في قلوبنا وقلوب الأمة الجزائرية كلها هي منزلة عالية جدا فكلنا نحبه ونرضاه ونهفو إليه ونتمنى له الخير وزيادة العمران»[1]، ولم ينس محمد العيد آل خليفة تلك الفترة القصيرة (عامين) التي قضاها بتونس وفي جامعها الأعظم بالذات، فعند رثائه للشاعر التونسي الشاذلي خزندار سنة 1954م أشار إلى فضل جامع الزيتونة ووصفه بالأبوة وجعل نفسه ابنا وسِعه هذا الأب الكبير بالبرّ والحنان وقال أنه عاش برهة تحت سمائه يقتبس من ضيائه، وأنه عاد إلى الجزائر يذيع رسالته ويرفع ذكره:

حبنا الأعظم فيها من أب ***وسعا الأبناء براً وحنانًا

قد سبحنا أمدا في أفقه ***واقتبسنا من دراريه سنانًا

[1] – الشهاب، ديسمبر 1933م

المنارة للاستشارات

وأذعنا من رسالات الهدى *** عنده ما طيّب ذكراه وزانا[1]

وفي خطابه الذي أرسله إلى أعضاء هيئة تحرير المجلة الزيتونية عندما اتصل بالعدد الثالث من مجلتها، كتب الشيخ الزيتوني مبارك الميلي منوّهًا بأثر الزيتونة في النهضة الجزائرية وبمكانتها في مريديها من الجزائريين، فقد استهل خطابهُ بإبراز فضل الزيتونة العام على جميع المعاهد في المشرق والمغرب وفضلها الخاص على أبناء الجزائر، مؤكداً شرف الانتساب إلى هذا المعلم ومعبّراً عن مسؤوليته ومسؤولية كل خريجي هذا المعهد تجاه كل نشاط تقوم به الزيتونة قائلا بهذا الصدد: «جامع الزيتونة أقدم الكليات الإسلامية الثلاث ومنه انبعث الضوء نحو المغرب فتأسّس بفاس جامع القرويين ثم انفصل منه نور نحو المشرق ظهر بالقاهرة فكان الجامع الأزهر، فلجامع الزيتونة الفضل العام على العالم الإسلامي في حياته الفكرية، ثم له علينا الفضل بصفة خاصة، فيه انتفعنا بما كُتب لنا من علوم الدين ووسائله، لذلك تجدنا نهوى جامع الزيتونة ونعرف له منزلته فيسوؤنا ويضعفنا كل ما ينتابه من خلل ويسرّنا ويشرّفنا كل ما يذكُره من شرف»[2]، بهذه المقدمة من رسالته كان الميلي يؤكد شرف انتسابه للزيتونة ويبرر الأسباب التي دفعته لإبداء ملاحظاته حول كل نشاط يتصل بها وينسب إليها ويصدر عنها ويعزو ذلك إلى غيرته المتأصلة عن المعهد الذي اغتذى بلبانه وطموحه في أن يراه يساوق سنّة النشوء والارتقاء، ويأخذ بأسباب التطوّر كي يكون هو من ينتمي إلى هذه الكلية هوى رصينًا وليس مجرد غريزة ومشاعر هوجاء وحب مطلق، مثل هواه هو الذي لا يريده أن يتأثر بحجب المجاملة أو التعلق بالماضي أو الغرور والتعصب «إن هوانا لهوى عاقل، وإن معرفتنا لمنزلته (جامع الزيتونة) لمعرفة

[1] – سعد الله (أبو القاسم)، شاعر الجزائر، ص. ص(86 –87).

[2] – مبارك الميلي، "المجلة الزيتونية"، الزيتونية، مج2، ج6. تونس: مارس 1938م، ص47.

المنارة للاستشارات

سالمة من التعصب، فلا هوانا يمنعنا من أن ندرك ما به من ضعف وهو يحملنا على إكبار ما يتصل به فنكون من المغرورين، نكتب هذا وبين أيدينا أثر من آثار ذلك الجامع المعمور هو (المجلة الزيتونية) الممتعة يحمل عرشها أربعة من شيوخ المدرسين وفتيانها الأقوياء».[1]

وبفضل الجهود الباهرة التي يذلها جلّ المصلحين والعلماء الجزائريين في دعوة شباب القطر الجزائري للهجرة، وحثّه على التغرب وطلب العلم لتجنيده في خدمة مستقبل بلاده وصل عدد الطلبة الجزائريين الذين كانوا يتابعون دروسهم بالمعاهد الزيتونية بتونس العاصمة أو بعض الفروع الأخرى بأنحاء البلاد سنة 1952م نحو ألف وخمسمائة طالبا[2]، ولا غرو بعدئذ أن نجد في شهادات المهاجرين الجزائريين اعترافا وتقديرًا وحبا غير محدود للزيتونة وإقرار بما لها من الفضل في الإبقاء على عروبة الجزائر وحماية الإسلام مما لحقه من عبث المستعمر واستهتاره.

ومن اعترافات الجيل الثاني من الجزائريين المهاجرين تحدّث الطالب الزيتوني أحمد الشريف السنوسي عن دور ومكانة جامع الزيتونة لدى الشبان الجزائريين قائلاً: «لم تزل كلية الزيتونة منذ أوائل القرن الثاني كعبة القصّاد ومركز الثقافة الإسلامية العربية وملقنة المبادئ التي عليها يرتكز هيكل الشعوب الأفريقية وعليها تبني ذاتيتها وفي مهدها ترعرعت النهضات الأدبية التي شملت ربوع الشمال الأفريقي وتكوّنت منها كتل تقمّصت بمبادئ سامية كانت مستلهمة من محاسن اللغة العربية وأسرار القرآن، فاضطلع رجل لا تزال أثاره مخلدة بأعباء توجيه شعوبهم إلى ما يجب أن تكونوا عليه وانتشالهم من الفوضى التي ذاق منها شعبنا الجزائري بخصوص ولم يزل يذوق ألوانا جعلته

[1] –نفسه، وللتوسع يراجع – الجابري(محمد الصالح)، "المؤرخ الجزائري مبارك الميلي"،الثقافة،ع102، الجزائر، ص.ص(23–25).

[2] – البصائر، الجزائر: 1936/11/20م.

المنارة للاستشارات

يضطرب في أي المسالك يسلك وينحط انحطاطا متزايدًا وما إليه من فساد في الأخلاق ودخل في العقائد وأفن في العقول...».[1]

وكتب الطالب أحمد بوزيد قصيبة* في البصائر مقالا بعنوان:"ذكريات تونس" هدفه منه تحريض الذين درسوا وعاشوا بتونس أن يكتبوا عن ذكرياتهم بها حتى تتعلق قلوب كل من يقرأها بالشرق العربي وسحره وأوله تونس ذلك «أن الذكريات هي التاريخ الحي الممتع أما ما عدا ذلك فسرد للوقائع »، ثم يعود فيكرر أسفه لغياب هذا النوع من الفنون الأدبية قائلا: «وإن من دواعي الأسف أن لا يشمل هذا الفن أصلا أو لا يشمل كما يجب وينبغي تسجيل ذكرياتنا في الشرق وبلاد العروبة والإسلام لنزداد تعلقا بها واشتياقا إليها ويزداد اطلاعنا على أحوالها وشؤونها، بل على العكس شملت كتب ذكريات كتّابنا ذكرياتهم في عهد الطلب بأوروبا وتسجيلهم المدقق لرحلاتهم بها لفرط إعجابهم بها حتى تسرّب إلينا بواسطة دسم أدبهم سمّ الاندماج والانكسار من غير أن يشعروا»، وعن أهمية جامع الزيتونة في دفع طلبة العلم الجزائريين إلى الالتحاق به زرافات ذكر«...تونس الخضراء بجامعها الأعظم المعمور الذي يؤمه الجزائريون للتفقه في علوم العربية والإسلام قد صارت وطنهم الثاني أو وطنهم الفكري والروحي فقد لبث جامع الزيتونة الذي هو كعبة الشمال الأفريقي حينًا من الدهر الملجأ الوحيد الذي اعتصمت ولاذت به الجزائر العربية المسلمة أمام الجيوش الجرارة الساحقة النسخة الماحقة من الاحتلال والإدماج والتبشير والتنصير وهو حصن القومية العربية الشرقية ومعسكرها الذي يقصده

* قصيبة أحمد أبو زيد (1919)م.من مواليد الأغواط، حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ السعيد الزاهري، وكان يتردد على المدرسة العمومية الفرنسية، انتقل إلى الزيتونة عام 1933م، كانت له عدة كتابات في الصحف التونسية أشرف على طبع ونشر الثمرة الأولى، عمل بعد عودته إلى الجزائر على نشر الوعي والتدريس، انخرط في جبهة التحرير، أسند إليه بعد الاستقلال التفتيش الجهوي لمساجد الجنوب الغربي للجزائر، ثم أدمج في سلك الأساتذة كما عيّن مديرا للمعهد الأصلي بالأغواط، من مؤلفاته: أحسن القصص، جمعية العلماء المسلمين (تاريخها ومبادئها).

[1]– أحمد الشريف السنوسي" الطلبة الجزائريون والزيتونة "، البصائر:ع 47، الجزائر:1948/08/30م، ص2.

المنارة للاستشارات

المجاهدون ليأخذوا أسلحتهم وعدّتهم ليجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله وإعلاء راية الإسلام والضاد بهاته الديار بأقلامهم وألسنتهم ومواعظهم ومواقفهم فولّت الجزائر وجهها الشاحب شطر صرح عبد الله بن الحبحاب واحتمى به أبناء العربية المتشردون الغرباء بلغتهم ودينهم في أوطانهم من فتيان الجزائر، فأفسحت لهم خالتهم تونس الخضراء الكريمة المضيافة، أفسحت لهم المجال ونزلوا بها على الرحب والسعة منزل المكرّمين رغم أنف المفرّقين...».[1]

وفي نفس السياق كتب الطالب عمار النجار(الكاتب العام للجمعية) عام 1948م: «لقد فتحت هذه الأمة العطوف ذراعيها لكل نازح ولكل ناهل من ذلكم المنهل العذب والمقتبس من تلك الشعلة الثاقبة فأحيطوا بشتى الحفاوة وضروب الإكرام وكامل التشجيع ولا أدل على هذا مما نجده من مشيخة الجامع الأعظم وفروعه من إعانة وتأييد، ويكونان في شكل امتيازي، لا في شكل قانوني ومما نجده كذلك من إدارة المدارس من عطف وتقدير فإن من المدارس ما يغلب أن تكون أكثريتها من الطلبة الجزائريين فضلا عما لهم من مدارس خاصة ترجع نفقتها إلى الأمة الجزائرية... هذا بعض ما عملتْه الأمة التونسية عموما إزاء شقيقتها الجزائر وهي فوق الحفاوة والتقدير»[2].

ولعل العطاء الذي قدمته الزيتونة للجزائر والعروبة والإسلام هو الذي حمل الأستاذ صالح الخرفي على التنويه بالدور الذي لعبته في تكوين الطلبة الجزائريين واعتبارها البيئة الأولى التي ترعرع في كنفها هذا النشاط الزاخر فيقول:« ولو أعطينا الأولوية للبيئة العلمية التي تخرّجت فيها الطليعة لجاءت تونس في الدرجة الأولى والحقيقة أن الزيتونة كانت دوما محل تقدير من طرف كل الخريجين، الذين عرفوا ما لهذا المعلم العلمي الجليل من الآثار السياسية

[1] - البصائر،ع11، الجزائر: 1947/10/20م.

[2] – البصائر ع20، الجزائر: 1948/01/19م.

المنارة للاستشارات

والفكرية والدينية على الأوضاع والتغيرات التي يمكن أن تحدث بالجزائر، وفي مقدمة هؤلاء الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد سرَت روح العرفان هذه إلى كل الأجيال الأخرى التي مثلت مختلف البعثات فظلت تُعرب عن هذا الوفاء الحميم في كل المناسبات»[1]، فقد جاء في قصيدة للشاعر محمد الصديق بن عريوة [2] يحيّ فيها الكلية الزيتونية بعد تخرّجه منها، تعبيرا عن العرفان بفضلها مستهلا قصيدته بمصافحة تونس الخضراء وتحيّة أهلها تحية الصب العاشق الولهان الذي يحمل بين جنبيه حنينًا دافقًا:

أصافح تونس الخضراء اهتماما *** وأودّع أهلها أبدا سلاما

فكم من عاشق يصبو لحسنا *** تعلله وتمنحه ابتساما

ونحن نحنّ للخضراء شوقا *** فدع يا عاذلي فيها الملاما

وبعد تحية تونس وأهلها، والكشف عن هذا التعلق بالوطن الذي آوى الشاعر وفتح له باب المعرفة مشرَعا يزجي الشاعر تحية خالصة للكلية التي زاول بها تعلمه مذكرا بفضل الزيتونة على الجزائر داعيا إلى تواصل هذه العلاقة مقرا لها بالمكانة التي تحتلها في نفسه وفي نفس كل جزائري:

فيا كلية العرفان دومي *** سبيلا للهدى وأحمل الأناما

تروم بلادنا منك العلوم *** فلبي صوتها تخطو أماما

ففيك مناهل الخيرات طرّا *** فجودي بالمنى وأرعي الذماما

رشفتُ لبانها من حسن حظ *** ونحن شبيبة نبغي قواما

أقول مودعا فيها كراما *** بحسن تحية زادت ختاما

[1]–الخرفي(صالح)، "الزيتونة في قلوب أبناء الجزائر" الحياة الثقافية،ع82،تونس:1937م، ص.ص(11– 18).

[2] - النهضة، تونس: 1924/01/18م.

المنارة للاستشارات

وما من شك في أن الشاعر كان يعبّر بلسان كل الطلبة الجزائريين الذين تخرجوا من الزيتونة فهو واحد من أولئك الذين امتلاؤوا عرفانًا لهذه الكلية ومشائخها مثله مثل جميع الجزائريين الذين ظلوا على علاقة حميمة بمشائخهم الذين تأثروا بهم وبدروسهم فقد نشر الشاعر أحمد الغوالمي قصيدة في نفس السياق[1] بجريدة الصريح، كما كتب عبد السلام القسنطيني في ذات المعنى بجريدة النهضة.[2]

ولا غرو حينئذ أن يتجسم هذا العرفان وذلك الوفاء في حب خالص وود عميق للزيتونة وللأندية والأحزاب الوطنية وللصحافة ورجالها ولتونس أرضاً وشعبًا، حب العاشق الولهان وحب الابن البار، وحب الروابط التي لا تبيد على حد تعبير الشاعر محمد العيد آل الخليفة فهذا الشاعر أبو اليقظان وقد جمع بعض الأدباء في مجلس للمساجلة وارتجال الأدب وكان الموضوع تونس وفضلها فأنشأ يعدد خصال هذا البلد الشقيق:

(تونس) تؤنس من قد *** أمّها قصد الصلاح
فهي مستشفى لداء الـ *** جهل والضر والمزاح
فيها يذهب منا *** الجهل أدراج الرياح[3]

وحين عاد حمزة بوكوشة إلى الجزائر أحسّ بلواعج الشوق مبرحا إلى الوطن الذي قضى به زهرة شبابه مع خلان الدراسة وزملاء الصحافة فهزّه الحنين إلى تونس حنين من لا يصطبر على الفراق الأبدي:

يا تونس الخضراء إليك *** تحية الصبّ الودود

[1] – الصريح، تونس، 1950/04/14م.
[2] – النهضة، تونس، 1924/02/18م.
[3] – أبي اليقظان (إبراهيم)، ديوان أبي اليقظان، الجزائر: المطبعة العربية، 1350هـ، ص 35.

المنارة للاستشارات

لم يخل رسمك من فؤادي*** لحظة طول الوجود
فلأنت إن شط النوى *** مني كما حبل الوريد
هب طال عنك تغرّبي *** لا بد من يوم أعود

والشاعر قبل أن يُظهر هذا الحنين والوفاء ويكشف عنهما، طالما كان دعا حال عودته إلى الجزائر؛ الشبيبة وكل الجزائريين بأن يزوروا أرض تونس ليشاهدوا جمالها الساحر وشواطئها الزاخرة... وأهم من ذلك كله أن يقفوا وقفة الإجلال والمهابة أمام معلمها الخالد (جامع الزيتونة):

زر أرض تونس وأسبح في شواطيها *** وحيّ عمرا تقضّى في مغانيها
وقلّب الطرف في أرجائها سحرا*** وشنف السمع من أنغام حاديها
وقف بروض النّهى والدينُ حارسُه*** (زيتونة) بزلال العلم يرويها
تزهوا الكمالات في أرجاء ساحتها*** رمز الفضيلة يبدو في أعاليها

أما الشاعر مفدي زكريا الذي ربطته بتونس روابط متعددة ظلت موصولة ومتجددة مع كل الأجيال، فقد أخلص لهذا القطر الشقيق إخلاصًا لا حد له جعله في بعض الأحيان يوقف شعره على مدحها:

بلاد بها للحر أهل وجيزة *** وتونس للأحرار ملجأها رحب
بلاد بها قضيت عصر شبيبتي*** تراوحني فيها المدارس والكتب
صبوت بها حينا من الدهر عابثا *** وأي فتى فلا لوم عليّ ولا عتب[1]

والحقيقة أن مظاهر الوفاء والحب والتكريم التي أبداها الطلبة الجزائريون المهاجرون نحو تونس تتعدد دون حصر، وهي مظاهر تتجاوز إبداء العواطف والمشاعر المجرّدة إلى التضحية بالنفس والمال والمشاركة

[1] – مفدي (زكرياء)، اللهب المقدس، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1983م، ص 184.

المنارة للاستشارات

الفعلية في الضرّاء، فقد دخل الجزائريون السجون التونسية عديد المرات بسبب القضية التونسية، وساهموا في إنشاء وتعضيد الأحزاب السياسية التونسية، وكانوا في مقدمة من عرضوا صدورهم للرصاص وأموالهم للتلف وعائلاتهم للضياع كما كانوا سنداً داعما لنضال الصحافة الوطنية التونسية بالفكر وبالحماس إضافة إلى وفاء سخي نحو علماء تونس وأدبائها وفي مقدمة ذلك جميعا الجامعة الزيتونية صاحبة الشأن والفضل في وصل هذه الرابطة وجعلها عروة وثقى لا تنفصم مع الأيام.

إن مظاهر هذا الوفاء أسهمت دونما شك في شد عُرى اللحمة بين الشعبين وبين القطرين وكان لها الفضل في جعل الكفاح المشترك ضد المستعمر الواحد كفاحا عنيدا مستميتا نتيجة التجاوب الحاصل بين المناضلين التونسيين والمناضلين الجزائريين الذين كانوا على اتصال دائم منذ أن شرع عمر بن قدور بنشر مقالاته السياسية والوطنية بتونس سنة 1911م إلى أن تتلمذ الشيخ بن باديس بتونس سنوات (1908 –1912)م على الإصلاحيين الزيتونيين، إلى البعثات الميزابية ودورها السياسي والوطني الفعال في التمازج والتلاحم بالنخبة التونسية منذ 1913م إلى الأجيال التي توالت بهجرات مستمرة باتجاه تونس[1]..كل هذه الحلقات المتصلة من الترابط المستمر بين المثقفين في كلا القطرين هي التي جعلت هذا الوفاء يتخذ طابع الديمومة وقوة الحب الحقيقي.

ونخلص إلى القول أن للبعثات التعليمية والرحلات دورها المميّز في تغذية حركة النهضة في الجزائر بجميع جوانبها والإسهام في توسيع دائرة النشاط الثقافي والأدبي بها وبخاصة منها جامع الزيتونة العامر، فقد كان من

[1] – الجابري(محمد الصالح)، الأدب الجزائري في تونس، ج1، تونس: بيت الحكمة، 1991م، ص 165.

المنارة للاستشارات

أهم العوامل التي سارعت في نقل أفكار أعلام الحركة الإصلاحية المشرقية إلى طلبته من الجزائريين وذلك عن طريق المصلحين من شيوخه.

04/ مكانة خريجي الزيتونة في المجتمع الجزائري:

أ- المحيط العائلي:

إن نظرة الأسرة الصغيرة والعائلة الموسّعة تختلف باختلاف الوسط الجغرافي فنظرة العائلة الريفية ليست كمثيلتها القروية فهي مغايرة كليا لنظيرتها الحضرية، كما أن نظرة العائلات الشعبية المتواضعة ستختلف كليا عن نظرة العائلات الشعبية المتواضعة ولا يمكن أن نجد أنصع وألمع من الصورة التي رسمتها العائلة الموسعة لابنها الطالب بالزيتونة على امتداد كامل الفترة الاستعمارية دون تمييز بين الأجيال والجهات، فهو "منارة للعلم وقطب للمعرفة" وسيكون له شأن كبير بعد تخرجه من الجامع الأعظم وموضوع تباه وافتخار من طرف كامل أفراد العائلة والعشيرة والعرش والقبيلة، حيث يمثّل نجاح أحد الطلبة وإحرازه على الشهادة في الوسط الريفي أو القروي حدثًا هامًا في تاريخ الأسرة أو العشيرة تباهي به أمام القبائل والقرى المجاورة، حيث كانت عودته خلال العطلة الصيفية بعد نجاحه مناسبة لإقامة الأفراح والمسرّات على امتداد أيام عديدة.

يذكر الشيخ أحمد حماني الحفاوة الكبيرة التي يتلقاها هؤلاء الخريجين من ذويهم وأقاربهم وضرب لنا مثلا بالحفاوة التي استقبل بها كل من محمد الزاهي ومحمد الصالح بن عتيق بمدينتهم الميلية حتى أنه «عندما انتشر الخبر في الدواوير المجاورة، حسدوا أهل (الميلية) التي كانوا يعمرونها يوم السوق (الثلاثاء) ثم يعود كل منهم إلى دواره...».[1]

1 – حماني (أحمد)، شهداء علماء معهد بن باديس، الجزائر: قصر الكتاب، 2004م.، ص 79.

المنارة للاستشارات

أما بالنسبة للأسرة الصغيرة (الأب والأم والإخوة والأصول)، فطالبنا هو قرّة عين الوالدين ومحط آمالهما ويريان فيه الابن الذي سيرفع راية الأسرة عاليا ويحقق ما لم تقدر العائلة على تحقيقه، وهو كذلك الابن الذي سيعوّضها عن سنوات الحرمان والاقتصاد لادخار مبلغ مالي يتم إرساله في حوالة أو طرد بريدي بواسطة زميل له في الدراسة رغم سنوات الجفاف والقحط والشدة التي تضطرهم إلى بيع عقار أو حلي للإنفاق على دراسته إسهاما لتسديد دين تخلّد بذمتهما لدى بعض أفراد العائلة..

مثلما حدث مع عائلات كل من محمد الصالح بن عتيق والأحمدي نويوات* ومحمد حمرات**، ورابح تركي***... وهو بالنسبة لهذه العائلات الريفية أو القروية المتواضعة: الإبن والأخ والصديق في نفس الوقت، وهو كذلك الفيصل في حلّ النزاعات والخلافات العائلية من نزاع حول الأرض والميراث إلى مشاكل الزواج والطلاق... وفي ذلك يقول أحمد حماني:«... انطلقتُ إلى تونس من جديد ترنّ في أذني كلمة من أبي رحمه الله، كانت آخر ما سمعته منه "يا أحمد تابع القراءة بأكملها"، وبقيت في مدينة تونس دون خروج منها لمدة خمس سنوات تقريبا حتى أفريل 1944م، وبعد التحصل على شهادة التحصيل عام 1940م، ثم العالمية سنة 1943م»[1]، وهذا الشيخ ابن

---

[1] – نفسه، ص 84.

* نويوات(موسى الأحمدي)،(1903–1999)م.من مواليد الطبوشة ببلدية أولاد عدي القبالة (المسيلة)، التحق بقسنطينة وتتلمذ على يد الشيخ ابن باديس بالجامع الأخضر، ثم سافر إلى تونس ليلتحق بالجامع الأعظم وظل بها أربع سنوات، في عام 1930م باشر التعليم المسجدي بقلعة بني حماد حتى عام 1937م ثم مدرسا بمدارس الجمعية بين أعوام (1937–1962)م ومن أعماله الفكرية: لمتوسط الكافي في علمي العرض والقوافي (1947)م، ومعجم الأفعال المتعدية (1979)م والمحادثة العربية للمدارس الجزائرية.

** حمرات (محمد)، (1929)م.من مواليد القليعة (تيبازة)، نشأ يتيما عند أخواله، تلقى المبادئ الأولية من النحو والفقه وحفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه، التحق بجامع الزيتونة عام 1946م.. ونال منه على شهادة التحصيل عام 1950م، وبعد عودته إلى الجزائر اشتغل في سلك التدريس بمدارس جمعية العلماء وعندما اندلعت الثورة انخرط في صفوفها، بعد الاستقلال واصل في سلك التعليم إلى أن أحيل على التقاعد.

*** عمامرة (تركي رابح)، (1932)م.ولد بسطيف في 1932/09/15م وبها ترعرع وتعلم مبادئ الفقه واللغة العربية وكان إلى جانب ذلك ينشط في الكشافة الإسلامية الجزائرية، التحق بجامع الزيتونة سنة 1946م، وتخرج منها حائزاً على شهادة التحصيل وبفضلها بدأ التدريس

المنارة للاستشارات

باديس فبعد أن عاد من تونس يحمل شهادة التطويع واستقبله أبوه في محطة القطار كما يُستقبَل العلماء والأعيان، كان مغتبطا أشد الاغتباط بنجاحه وبعودته ولما انتهيا إلى المنزل صاح الأب بأم البنين آن لك أن تزغردي يا أم عبد الحميد فقد عاد ابنك عالما ليرفع من قيمة عائلته وأمّته ويزيدها مجدًا وشرفًا فأطلقتها الأم زغرودة عالية دوّت أصداؤها في أرجاء البيت الفسيح، وقد أثّر هذا الاستقبال في ابن باديس أيما تأثير، فقد ظلّ يذكُره بكثير من الاعتزاز أمام طلابه قائلا:« إن تلك الزغرودة التي قابلتني بها أمي يوم عدتُ من تونس ما تزال ترن في أذني ولن أنساها ما حييت..! إنها صورة مصغرة من تفكير شعب كله، فاحفظوا هذا وحافظوا عليه هذه وصيتي إليكم».1

وخلال حلول الطالب الزيتوني مدينته أو قريته لقضاء عطلته أو عبر الرسائل أحيانا، كان رأيه يحظى باحترام الجميع وله من الفصاحة والمعرفة ما يمكّنه من الإبلاغ والإقناع والحسْم، فنادراً ما يُرفض له طلب أو سعي، فيذكر يحي بوعزيز أن أباه ردّ عليه أخاه الأكبر عندما وقف هو خطيبا في الناس بعد صلاة العيد، بشكل جعل أخاه الأكبر يعمل على معاتبته، فردّ عليه والده « دعه؛ فهذا عصره، ولا يمكن أن تقاوم رياح التاريخ، إنه يقرأ بتونس... ويدرك الصالح من الطالح ولا بدّ أن يخوضَ مع الخائضين!»2 وهذه هي نظرة الجزائريين لطالب الجامع الأعظم رغم أن والده صوفي النزعة والمشرب.

وإجمالا فإن نظرة العائلة الجزائرية للطالب الزيتوني تختلف من وسط لآخر، ففي الوقت الذي يمثّل فيه هذا الطالب رهانا للعائلة ووسيلة لارتقائها في

بمدرسة جمعية العلماء بسطيف، التحق بكلية دار العلوم في القاهرة خلال الموسم (1952– 1953)م، مع إعلان الثورة عين في مكتب إعلام جبهة التحرير وبعد الاستقلال ساهم في تأسيس إعلام الجزائر المستقلة انطلاقاً من صحيفتي المجاهد ثم الشعب. وبدءاً من (1965– 1966)م استأنف الدراسات العليا حيث تحصل على الدكتوراه في علوم التربية، شغل عدة مناصب تربوية وإدارية له عدة مؤلفات في ميدان تخصصه وحول تاريخ جمعية العلماء المسلمين والشيخ ابن باديس.

1 – فضيل (عبد القادر) ورمضان (محمد الصالح)، إمام الجزائر عبد الحميد ابن باديس، الجزائر: دار الأمة، 1998م ، ص 29.

2 – بوعزيز(يحي)،أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج1، بيروت:دار الغرب الإسلامي،1995، ص72.

المنارة للاستشارات

السلّم الاجتماعي وبالنسبة للأوساط ذات الدخل المتوسط والضعيف بالأرياف والقرى وبعض الأوساط الحضرية، فإنّه لا يعدو أن يكون إلا وسيلة للحفاظ على هذه المكانة في الأوساط الميسورة.

ب/ العامـة:

إذا كانـت شـهادتي التحصـيل والعالميـة تعفـى صـاحبها مـن عـدة التزامات جبائية في تونس، فإنهما في أذهان العوام بالجزائر تمنح لحاملها آفاق التخصّص والإبحار في شتى العلوم والمعارف التي لا يمكن أن تدرّس في الجزائر بل لا بد من السفر للحصول عليهما، وبما أنه لم يكن هناك فصل في العلوم والمعارف في أذهان العامة فإن الطالب الزيتوني حتى ولو لم يتخرّج بعدُ يعتبر بالنسبة لغالبيتهم "عالماً" مُلمًا بكل أنواع المعرفة وفروعها، بإمكانه أن يناقش في شتى المواضيع ويجيب عن كل الأسئلة والاستفسارات من التاريخ إلى الأدب ومن الطب إلى الدين ومن القانون إلى الجغرافيا... فهو الذي سيخلّص البلاد من الظلم وتجاوزات الاستعمار الفرنسي، ولكل ما تقدم ذكره فإن الطالب الجزائري بالزيتونة يبقى خلال هذه الفترة في نظر العامة "قطبًا علميًا" وعرفيًا، بل مفخرة العشيرة والأسرة في القرية والحي في المدينة رغم الخلط السائد في الرّتب والدرجات والشهادات لدى هذه الشريحة الاجتماعية.

إن القيمة المعنوية الكبيرة التي يحظى بها جامع الزيتونة في نفوس الجزائريين هي التي جعلت الطلبة الجزائريين الذين درسوا به يحظون بالتقدير والاحترام من طرف مجتمعاتهم، وهو الشيء الذي لا يتحصل عليه أنجب طالب درس محليا... وفي هذا الصدد ليس هناك أية مقارنة تذكر بين الطالبين الأول تعلّم في إحدى المدارس الفرنسية–العربية، والثاني في الزيتونة، ويشهد محمد بن رحال الذي عاش خلال الجزء الأول من الفترة التي نحن بصدد دراستها والذي له آراء وتقارير هامة عن هذا الموضوع، أي تعليم الجزائريين من

المنارة للاستشارات

1884م إلـى 1925م، « إن السـلطة الروحيـة تنتقـل مباشـرة إلـى الطلبـة الجزائـريين الـذين زاولـوا دراسـتهم فـي الزيتونـة أو فـي غيـرهم مـن الجامعـات الإسـلامية بمجـرد رجـوعهم إلـى الـوطن وأن المعلمـين والمدرّسـين الـذين تكوّنـوا محليًـا يُبـدون عجـزًا تامًـا أمـام هـؤلاء علـى جميـع المسـتويات وحتـى المثقفين الجزائريين الذين يعملون في الإدارة الفرنسية كالأئمة والمفاتي لا تأثير لهم يذكر أمـام المثقفين الـذين درسـوا فـي الجامعـات الإسـلامية بـل فـي بعـض الحـالات تُلصـق بهـم تهمـة «الجهـل» إذا قُـرن الطـرف الأول بالثـاني وهـذا وجـه مـن أوجُـه التـأثير الـذي مارسـته الجامعـات الإسـلامية فـي المشـرق والمغـرب العربيين بـين الأوساط الجزائرية ».[1]

«وقـد حـدث أن إمامـا فـي مدينـة بسـكرة كـان قـد تعلّـم فـي الزيتونـة استطاع بمفرده أن يوجّه أنظار الشبان الذين درسوا عليه إلى الجامعة الأخيرة، وهو الشيء الذي جعل الكثير منهم يلتحقون بها في أواخر العشرينات من هذا القـرن»2، وهـذه النقطـة بالـذات تحتـاج إلـى دراسـة خاصـة ومستفيضـة، إذن فالطلبـة الـذين درسـوا خـارج البـلاد يكتسـبون سـمعة طيبـة عنـدما يرجعـون إلـى وطنهم مزوّدين بثقافة عربية إسلامية عالية فيشقّون طريقهم في الحياة معزّزين مكرّمين دون حاجـة للوظيـف فـي الإدارة الفرنسـية، فـالإدارة الفرنسـية والمجتمـع الجزائـري بصـفة عامـة ينظـران إلـى الطلبـة الـذين تخرّجـوا مـن الزيتونـة بغيـر المنظـر الـذي ينظـران بـه إلـى الطلبـة الـذين درسـوا محليًـا مهمـا كانـت كفـاءتهم ومهمـا كـان مسـتواهم التعليمـي ومقدرتهم الثقافيـة، وفـي المجتمعـات الريفيـة إذا حدث أن دَرس طالب بالجامع الأعظم وتخرّج منه ثم عاد إلى قريته فلا ينازعه في السلطتين الروحية والزمنية منازع وكل شـيء في الحقيقة متوقف على ذكاء

[1] – جغلول (عبد القادر)، "محمد بن رحال وقضية تعليم الجزائريين (1886–1925)"، مجلة التاريخ،ع01،الجزائر :1977م،ص140.

[2] – نفسه، ص 141.

المنارة للاستشارات

وثقافة الطالب فمنهم من بلغ شأوًا كبيرًا بعد رجوعه إلى بلاده، ومنهم من أثّر في محيطه كليًا أو جزئيًا ومنهم من لم يكن له أي أثر يذكر.[1]

ج/- الطبقة المثقفة:

يرى المثقفون الجزائريون على اختلاف أصنافهم في الطلبة الدارسين بالجامع الأعظم "نخبة المجتمع وصفْوته" خصوصًا منذ مطلع الثلاثينات مع تنامي العمل الإصلاحي والتربوي في الجزائر فهم "ضمير البلاد ومحرّكها وصوت الدفاع عن أصالتها وشخصيتها"، وبدخول الاستعمار مرحلته النهائية منذ الخمسينات أصبح الطالب الزيتوني في نظرهم إطار المستقبل الذي سيمسك بمختلف الدواليب بعد خروج المستعمر الفرنسي وتسلّم الجزائريين شؤونهم بأنفسهم.

ولو تعمّقنا في نظرة هذا الوسط المثقف إلى الطلبة فإننا نجد اختلافا وعدم تجانس في الرؤى الأمر الذي انعكس فيما بعد على طبيعة العلاقة بين الطلبة ومختلف فئات هذا الوسط ويبرز هذا الاختلاف بصفة خاصة مع النخبة التقليدية (أصحاب الطرق الصوفية المنغمسة في طقوسها) من جهة والنخبة العصرية ذات التكوين الفرنكفوني من خريجي المعاهد والمدارس الفرنسية من جهة أخرى.

- النخبة التقليدية:

رغم التقدير والاحترام الذي يكنّه طلبة المعاهد الدينية والزوايا بالجزائر إلى الطلبة الزيتونيين، فإن البعض منهم كان يرى في خريجي المعاهد العليا المشرقية عموما وجامع الزيتونة خصوصًا منافسًا جديًا لهم في التعليم والإمامة... وذلك بحكم تكوينهم العلمي المتميّز، ونتيجة لذلك بقيت هذه النخبة

[1] - هلال(عمار)،"الطلبة الجزائريون في الأزهر عام 1916م"، الثقافة،ع79، الجزائر: جانفي/فيفري 1984م، ص 131.

المنارة للاستشارات

مهمشة نسبيًا، وازدادت مكانتها تراجعًا بحكم تزايد تدفق خريجي الزيتونة، وبسبب الانضمام المبكر للزيتونيين وخصوصًا عقِب الحرب الثانية ومطلع الخمسينات إلى التيار الوطني والتحرري وصفّ الثورة وتأخّر النخبة التقليدية في إعلان ولائها، فقدت هذه الأخيرة كل أمل في الاندماج مع الأنتلجنسيا الجزائرية الوطنية فانحصر دورها داخل أسوار زواياها ومراكز طرقها الصوفية.

- النخب العصرية:

لقد ظهرت في الجزائر خلال الثلاثينيات عندما اتضح الاتجاه العربي للحركة الوطنية، عناصر تتكر صلتها بالحضارة العربية الإسلامية وتعلن ارتباطها بالحضارة الأوروبية ومن هؤلاء ابن الحاج وكسوس وزناتي والفاسي بل حتى ابن جلول وعباس... فقد كتب هؤلاء في جرائدهم ومجلاتهم يُعبّرون عن سخطهم ضد الذين ينادون بالجزائر العربية الإسلامية وادّعوا أنه لا قومية للجزائر والجزائريين سوى القومية الفرنسية.[1]

وخلافاً للنخب التقليدية كانت بعض من العناصر النخبوية العصرية –ذات الاتجاه الوطني– ترى في طلبة الجامع الأعظم مكمّلا لها إن لم نقل جزءًا منها لا يفصلها عنها إلا حاجز اللغة الموظفة في الأداء التعليمي والوظيفي.. ومع مطلع الخمسينات وحدوث التقارب الاستراتيجي بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجماعة فرحات عباس.. بدأت النخبة العصرية تستشير خريجي الزيتونة وتستمع إلى مشاغلها واهتماماتها وتحترم آرائها وتطلّعاتها فتفتح لها منابرها وصحفها ومجلاتها لإيصال صوتها إلى الناس، وقد ظهر ذلك جليًا في مؤتمر (ج.ط.ش.إ.م)، ويعزى ذلك إلى اشتراك الطرفين في التعليم ونوع المؤتمرات التي طبعت تكوينهما... وكانت أقلام هؤلاء تصفهم

[1] – سعد الله (أبو القاسم)،" الاتجاه في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين"،الثقافة،ع31، الجزائر :فيفري/مارس 1976م ، ص30.

المنارة للاستشارات

أحيانا "بمثقفينا وشبيبتنا".. وغيرها من التسميات التي تنمّ عن احترام وتقدير فائقين للطلبة، لكن بالمقابل هناك فئة من النخبة المتفرنسة والمتشبعة بالثقافة الفرنسية كانت ترى فيهم العدوّ اللّدود ورمزًا من رموز التقليدية والتخلّف والتزمّت، كوْنها ترى في نفسها رمزًا للحضارة والتقدم... فكان أن حدثت بينهما المشاحنات والمعارك الصحفية التي غصّت بها صحف هذه الفترة وهو الصراع الإيديولوجي الذي لا زال قائما في الجزائر المستقلة إلى حد الآن، وهكذا فإن صورة طلبة الجامع الأعظم في أوساط النخبة المثقفة تبقى متباينة بحكم اختلاف تكوين عناصر النخبة ورؤى أنصار النزعتين التقليدية من جهة والعصرية من جهة أخرى، ورغم التقارب الذي حصل بين الطلبة الزيتونيين وطلبة فرنسا أيام الثورة داخل الإتحاد العام للطلبة الجزائريين المسلمين منذ تأسيسه فإن نظرة الطالب المتفرنس لزميله الزيتوني لم تتغير كثيرًا إن لم نقل لا تزال راسخة في أذهان البعض منهم إلى اليوم !!

د/ طبقة الزعامات السياسية والوطنية:

لقد كان أقطاب الحركة الوطنية الجزائرية ينظرون إلى طلبة الجامع الأعظم نظرة احترام وإكبار للجهود التي يبذلونها في التعلّم ومواصلة دراستهم العليا وهو أمر طبيعي بحكم أنهم كانوا يومًا ما من طلبة المدارس والمعاهد، فعندما عهدت الهيئة الإدارية لجمعية الطلبة الزيتونيين بتونس–قصد إبراز نشرة الثمرة الثانية عام 1947م– إلى بعض مفكري الجزائر بتزكية هذا العمل الفكري والأدبي دعت الجمعية زعيم الجزائر آنذاك مصالي الحاج لأنْ يبارك عملها بكلمة تشجيع وتوجيه بعد غياب راعيها ابن باديس فلم يرى مانعاً من ذلك، فكتب مقدمة لهذه (الثمرة الثانية) يخصّ فيها «دور الشبيبة المثقفة في تكوين

المنارة للاستشارات

الحركة الوطنية بمغربنا»1، ودعا في هذه الكلمة الشبيبة المثقفة للالتحام بالشعب لكي تكون طليعة كفاحه والنموذج الذي يحتذى «فالشبيبة الجزائرية التي ستصبح في مستقبل الزمن نخبة البلاد ينبغي لها أن تصنع أداة كفاحها وهي على مقاعد المدارس والكليات، وأن تضرب عرض الحائط بصفة نهائية تلك الأخلاق الفاسدة التي يحاول الاستعمار أن يغذّيها بها في مكاتبه»2، كما دعا مصالي الحاج في نفس المقال هذه الشبيبة المثقفة إلى التأهّب لقيادة الجماهير والانتصار على الاستعمار حيث الحرية والاستقلال، بعد أن تكُون قد تشبّعت بروح الحضارة العربية: «فالشبيبة المدرسية وإن كانت عزيزة بثقافتها، شريفة النفس بما اقتبسته من تاريخ الحضارة العربية يجب عليها زيادة على ذلك أن تكون في طليعة الكفاح الوطني وأن تقود جماهير الشعب إلى حيث الانتصار على الاستعمار، وإلى حيث الحرية والاستقلال».3

وبنشأة جمعية العلماء أصبح الطالب الزيتوني رجل المهام الصعبة بالنسبة إلى قادة الجمعية وذلك لنضجه الفكري والأدبي أحياناً، لذلك تمّ تكليف العديد من الطلبة بمهمّات (كجمع مداخيل صحف الجمعية عبر الفروع، أو العمل كمراسلين لصحف عدد من الجمعيات والأحزاب...)، ووفقًا لذلك أصبح الطالب الزيتوني ورقة مُربحة في استراتيجية الأحزاب الوطنية والمنظمات والجمعيات وقادتها.. أملاً في أن يقدّم خدمات للوطن ويكلّف بمهام صعبة لدعم الجبهة الداخلية من الخارج، وهو ما زاد في تمتين العلاقة بين الطرفين.. والمنافسة الشديدة التي حدثت بين المنظمات والأحزاب الوطنية –فيمن يستقطب أكثر من هذه الفئة– أدّت إلى حدوث شرخ كبير في بنية الزيتونيين بتونس..

---

[1] – الثمرة الثانية، (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة التليلي، (1947–1948).، ص. ص(8– 9).

[2] – نفسه، ص8.

[3] – نفسه.

المنارة للاستشارات

فحدثت بينهما صدامات ومشاكسات –كانت مميتة أحياناً– بفعل الصراع الإيديولوجي والسياسي الذي كان بين القيادات العليا للأحزاب الوطنية.

المنارة للاستشارات